الفصل الثانى

الفرعون

لم يكـن هـذا اللفظ فى البداية أكثر مـن تعريف اصطلاحـى إدارى، كتب فى صيغته المصريـة «برعـو» أو «برعا» بمعنى البيت العالى أو البيت العظيم الذى يتجه الشـعب إليه بمشاعر التعظيم والأمل والولاء والرهبة. ثم امتد مدلول لفظ «برعو» من البيت العظيم أو قصر الملك والذى سـاد منذ الدولة القديمة إلى الدلالة فيما بعد على الملك نفسـه، سـاكنه الذى يعتلى عرشه المقدس.

وقد يفهم هذا بمقارنته بما شـاع فى العصر العثمانى مثلاً بعد عشرات القرون بالتعبير عـن القصر الذى يقطنه السـلطان وبالتالى عن السـلطان نفسـه بـ «البيـت العالى»، بل ومقارنتـه بمـا تذكره لغة الصحافة الحديثة عن سياسـة «البيـت الأبيض» فى الولايات المتحدة مثلاً، وتعنى بها سياسـة رئيـس الدولة وجهازه الأعلى. غير أنه لم تثبت دلالة هذا اللفظ على شـخص الملك إلا منذ الأسـرة الثامنة عشـرة وتحديداً فى عهد اخناتون (١٣٦٥ – ١٣٤٩ ق.م تقريبـاً) إذ لقب بذلك على بعض آثاره، كما خوطب به فى بعض ما وجه إليه من كتب[١].

ففى خطاب من أهالى مدينة «تونيب» فى فلسـطين إلى اخناتون يسـتغيثون به ويطلبون العون منه حتى لا تقع مدينتهم تحت نفوذ الملك الحيثى «سوبيلوليوما» ويذكرونه أنهم أرسلوا له من قبل عشرين رسالة ولم ينجدهم، يشيرون فى هذه الرسالة إلى الملك بالفرعون:

« والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسـيل ولا ناصر لها، ولقد أرسـلنا عشـرين رسالة إلى مولانا فرعون مصر ولا مجيب»[٢].

وشاع بالتالى لفظ «فرعون» مع الاسم الشخصى لكل ملك مصرى بعد ذلك. كما شاع فيما بعد ذلك بقرون طويلة لقب «قيصر» على كل حاكم أعلى للرومان والبيزنطيين، وشاع لقب «كسرى» بين العرب على كل ملك فارسى، ولقب «نجاشى» لكل ملك حبشى.

---

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، الشرق الأدنى القديم، جـ١، مطبعة جامعة القاهرة، ١٩٩٠، ص٨٢.

(٢) سيد توفيق (دكتور)، معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية، دار النهضة العربية، ١٩٩٠، ص٢٩٥.

وحرفت النصوص العبرية لفظ «برعو» إلى «فرعو» نظراً لاختلاط نطق الباء مع الفاء فى اللغات القديمة؛ ثم أضافت اللغة العربية إليه النون الأخيرة[1].

على أن لقب «فرعون» لم يستعمل فى أى وقت من التاريخ كلقب حقيقى رسمى للملك[2]. بل كانت هنالك خمسة ألقاب رسمية للحاكم فى مصر القديمة أولها لقب «حور» أو «حورس» ومعناه أن الملك بمجرد اعتلائه عرش الملك يلقب باسم «حورس» أى إنه صورة حية من هذا الإله تعيش على الأرض.

واللقب الثانى كان يمثل فى صورة نسر (رمز الجنوب) وصِل (حية رمز الشمال)كل منهما يرتكز على سلة رمز للملكية[3]. وكلاهما «نبتى» أى التاجان الأبيض للجنوب والأحمر للشمال. أى إن لقبه هنا أنه «الملك صاحب التاجين» الأبيض والأحمر رمزى الجنوب والشمال.

واللقب الثالث كان يسمى بالمصرية «النيسو – بيتى» ويعنى ملك مصر العليا والسفلى أوسيد الأرضين الوجه القبلى والوجه البحرى، وهو حرفياً المنتمى إلى نيسوت (الغاب رمز الوجه القبلى) وبيتى (النحلة رمز الوجه البحرى أو مصر السفلى).

وكان اللقب الرابع والذى ظهر فى عهد الملك «سنفرو»[4] وهو «حور – نب» أى حور القاهر، إشارة إلى تغلب حورس ابن اوزير على عمه الشرير «ست» كما تروى أسطورة «ايزيس واوزوريس»، أى إن الملك هو حورس المنتصر. غير أن البعض يترجمه «حور الذهبى»[5].

أما اللقب الخامس فكان «ابن رع» أو ابن إله الشمس، وظهر فى أواخر عهد الملك منكاورع أى أواخر الأسرة الرابعة. لتكتمل بذلك الألقاب الملكية الخمسة الرسمية والتى بقيت كذلك حتى أواخر عهد الحكم الرومانى[6].

ولم تكن هيئة فرعون أقل فخامة، إذا تجعله شاراته فى مصاف الآلهة. فكان يضع كالآلهة ذنب حيوان متصلاً بحزامه ويتدلى من وسطه. ويضع لحية مستعارة كانت هى

(١) عبد العزيز صالح (دكتور)، المرجع السابق، ص٨٣.

(٢) جورج بوزنر وآخرون، معجم الحضارة المصرية القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦، ص ٢٥٥

(٣) سليم حسن، مصر القديمة، جـ ١، ص ١٦٦ – ١٦٧.

(٤) سليم حسن ، المرجع السابق، ص ١٦٨.

(٥) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

(٦) سليم حسن ، المرجع السابق، ص ١٦٨.

نفسها إلهاً، ويحمل صولجاناً مزيناً برأس حيوان الإله ست. وأضيفت عليه من هالات العظمة والبطولة ما صورته ببنية بطل يسيطر على الحشود ولا يوجد من يستطيع مقاومته أو يصد ضرباته أو يفر من مطاردته. يقف وحده فى ساحة القتال فيكيل بالألوف من أعدائه، وكما تقول النصوص «والخوف الذى يبثه، يُلقى الرعب فى قلوب البرابرة فى بلادهم»، لا تخفى عنه خافية ويسير وبعينه الأغوار العميقة، بلغت خططه درجة الكمال فكل ما يأمر به يتم ويتحقق». ومع هذه الصفات التى تضفى الهيبة والرعب تصفه نصوص أخرى بأنه لا يعرف كرمه حدوداً وضَمِن السعادة لرعيته فيحمى الضعيف ويقيم العدل «ماعت»[1].

والخلاصة من هذا التناول لأصل لفظ «فرعون» أنه تعريف اصطلاحى إدارى ولقب غير رسمى للملك بعد الأسرة الثامنة عشرة.

وتجدر الإشارة إلى دقة الذكر القرآنى فى عدم استخدامه لفظ فرعون إلا فيما روى عن ملك مصر المعاصر لموسى عليه السلام فقط وذلك فى ٦١ موضعا، منها ١٣ موضعًا مسبوقاً بلفظ آل، و٧ مواضع مصحوباً بلفظ ملئه، و ٥ مواضع مصحوباً بلفظ قوم، وأربعة مواضع معطوفاً معه «هامان» وزيره. بينما لم يذكره مرة واحدة فيما أورده من ذكر لحاكم مصر الذى عاش فى عهده يوسف عليه السلام والذى أشار إليه القرآن على أنه ملك، بخلاف التوراة التى تلقب كليهما بالفرعون كما فى سفر التكوين وسفر الخروج، بل وتشير إلى فرعون موسى على أنه ملك فى بعض المواضع.

ففي سفر التكوين (٤١: ١ – ٨): «وحدث من بعد سنتين من الزمان أن فرعون رأى حلماً.. وكان فى الصباح أن نفسه انزعجت فأرسل ودعا جميع سحرة مصر وجميع حكمائها وقص عليهم فرعون حلمه فلم يكن من يعبره لفرعون». ويقصد بالفرعون هنا ملك مصر فى عهد يوسف عليه السلام.

«ثم قال يوسف لإخوته وأبيه أصعدُ وأخبر فرعون وأقول له إخوتى وبيت أبى الذين فى أرض كنعان جاءوا إلي» (التكوين ٢١: ٤٦).

«وأخذ من جملة إخوته خمسة رجال وأوقفهم أمام فرعون، فقال فرعون لإخوته ما صناعتكم فقالوا لفرعون عبيدك رعاة غنم نحن وآباؤنا جميعا» (التكوين ٤٧: ١ – ٣). وعن فرعون موسى:

---

(١) جورج بوزنر وآخرون، المرجع السابق، ص ٢٥٥.

«فنزلت ابنة فرعون إلى النهر لتغتسل وكانت جواريها ماشيات على جانب النهر» (الخروج ٢ : ٥).

«فقال موسى لله من أنا حتى أذهب إلى فرعون وحتى أخرج بنى إسرائيل من مصر» (الخروج ٣ : ١١).

بل إن العهد القديم يشير فى بعض نصوصه إلى فرعون موسى على أنه الملك بجانب لقبه «فرعون» وهذه أمثلة على ذلك:

«وحدث فى تلك الأيام الكثيرة أن ملك مصر مات، وتنهد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية» (الخروج ٢ :٢٣).

«ولكنى أعلم أن ملك مصر لا يدعكم تمضون ولا بيد قوية» (الخروج ٣ : ١٩).

مع أن وجود يوسف عليه السلام كان سابقاً لموسى بنحو خمسمائة عام، حيث قدر العهد القديم مدة إقامة بنى إسرائيل فى مصر بأربعمائة وثلاثين عاماً وهى المدة الممتدة منذ دخول يوسف عليه السلام مصر، والتى كانت فيما يرجح فى عهد الهكسوس الذين غزوا مصر أواخر الأسرة الرابعة عشر (١٧٨٦ – ١٦٠٣ ق.م) وحتى مولد موسى عليه السلام فيما يرجح فى عهد رمسيس الثانى (١٢٩٨ – ١٢٣٢ ق.م).

ولقد ذكر القرآن فرعون موسى وخصه بهذا اللقب دون سائر ملوك مصر قصراً عليه وحده بما وصفه به من المروق والطغيان، ذلك الطغيان الذى صار اسم فرعون فى نظر الناس علماً عليه، وما كان منه من التكبر والاستعلاء والإجرام والتأله.

وقد قدر الله أن يختص واحداً من سائر الفراعنة بهذا الذكر وهذه الصفات ذلك هو فرعون الذى صحبه وخدمه رجل من خاصته وحاشيته وهو «هامان». وعاش فى عهده رجل ثرى صاحب أموال وكنوز وهو «قارون» وذلك حين الحديث عمن أُرسل إليه موسى عليه السلام وجهر بالتحدى والتكذيب فحقت عليه الكلمة كما يفهم من سياق الآيات:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة غافر].

﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [سورة القصص].

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ

فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة القصص].

أما قارون فقد كان من قوم موسى بل يقول البعض بأنه ابن عمه، أى من بنى إسرائيل الذين كانوا ينعمون بعطف فرعون وكرمه. وإلا لما وصل إلى ما وصل إليه من الثراء والغنى على الرغم من أنه من الاسرائيليين الذين ينظر المصريون إليهم على أنهم من الطبقة الدنيا. ولهذا فكان من اليسير عليه وحسبما تشير منطقية الأمور أن يكون «فرعونى» المذهب ومتملقا منافقا، فإن مذهبه فى الحياة حيث تكون أمواله فى مأمن ونماء. ولقد فصّل القرآن قصته فى [سورة القصص]:

﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

ولقد كان قارون صديقاً حميماً للفرعون دون بنى إسرائيل جميعاً، وذلك بحكم ثرائه الفاحش ولعله بذلك يعكس الازدواجية المعهودة أو ما اصطلح على تسميته بتزاوج السلطة بالمال فى ظل توحد المبدأ والهدف، وهو ما تعانى منها المجتمعات الإنسانية منذ القدم وحتى الآن. وقد جمع الله المكذبين الثلاثة: فرعون وهامان وقارون فى آية واحدة وكيف كانت نهايتهم فقال تعالى:

﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [سورة العنكبوت].

ومن هنا نفهم من السياق القرآنى فيما ورد من آيات أخرى عن موسى وقومه أو عما جرى بين موسى وفرعون من حوار على أنه ذلك الفرعون الذى لم يشأ القرآن أن يسميه بذاته. أما التعميم فى أول سورة القصص ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [سورة القصص].

فينصرف الخبر فيه إلى ما وقع لموسى مع فرعون عصره، والذى كان يضطهد بنى إسرائيل ويذبح أبناءهم ويستحى نساءهم ويسيمهم سوء العذاب.

وبصرف النظر عمن يكون هذا الفرعون فإن ما يعنينا هنا ما يمكن أن نطلق عليه اصطلاحاً «الفرعنة» أو «الفرعونية» أو جملة الصفات الذميمة التى كان يتصف بها فرعون موسى واستحق اللعنة عليها، وهو ما ركز القرآن الكريم عليه فى سياق سرده لقصة موسى مع من عاصره من الفراعنة.

❑❑❑